ربعي والمغيرة

بقلم د. حبيب زين العابدين

من أعظم القصص التاريخية التي تعجبني والتي لها أعمق الأثر في نفسي بل كلما سمعتها أو رجعت إليها وجـــدتها ترسم صورة حية عن واقع الإنسان العربي في حالتين : حاله قبل الإسلام وحاله عندما تمسك بالإسلام إنها قصة رسل سعد بن أبي وقاص إلى يزدجر ملك الفرس و رستم قائدهم ، ومما ورد في قول ملكهم للرسل حـــين قـــدموا عليـــه للتفاوض (إني لا أعلم في الأرض أمة كانت أشقى ولا أقل عدداً منكم ، ولا أسوأ ذات بين منكم ، قد كنا نوكـــل بكم قرى الضواحي ليكفونكم لا تغزوكم فارس ولا تجرؤون على قتالها .. فإن كان الذي جعلكم تقدمون علينا هو الجهد فرضنا لكم قوتاً إلى خصبكم ، وأكرمنا وجوهكم وكسوناكم وملكنا عليكم ملكاً يرفق بكم) ورد عليه المغيرة بن شعبة أن هذه كانت حالنا قبل أن يعزنا الله بالإسلام .. وأما الآن فاختر إن شئت الجزية وأنت صاغر ، وإن شئت فالسيف أو أن تُسلم فتنجي نفسك .

وكان ربعي بن عامر قد دخل على رستم بثيابه الرثة وهو راكب بغلته حتى داس بها علـــى بُـــسطهم ، ثم نـــزل وربطها ببعض وسائدهم ، وأقبل يتوكأ على رمحه فوق النمارق فخرق عامتها .. فقال له رستم ما جاء بكم ، فقال ربعي : ابتعثنا الله لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام .. فمن قبل ذلك منا رجعنا عنه ومن أبى قاتلناه ، حتى نفضي إلى موعود الله! قال : وما موعـــود الله ؟ قال : الجنة لمن مات والظفر لمن بقى ، فقال رستم : إذاً فقد وضعنا في أيديكم ، فرد عليه ربعي : نعـــم فـــإنكم لا تحاربون البشر وإنما تحاربون القضاء والقدر .

أي روح عالية ، وأي ثقة عظيمة وأي عزّة كبيرة كانت تتمتع بها هذه النخبة من صحابة الرسول ﷺ وأين نحن الآن من هذا وقد غدا الناس يتمسحون بالصغير والكبير ومن يستأهل ومن لا يستأهل ، وينشدون العزة في جنب هذا ، والنصر من قبل ذاك ، والقوت من يد أولئك ، لقد غدا العرب اليوم في ذلة ومهانة وارتكسوا إلى وضع أسوأ ممـــا كانوا عليه في جاهليتهم الأولى .

إنّ في هذا إشارة إلى نزعة خطيرة ضربت بظلالها على كثير من الوجوه والمظاهر ، حتى أصبحت المسكنة الطابع العام للتعامل في حياة الكثيرين من المسلمين .. فهل ننقذ أنفسنا بالعودة الصادقة إلى ديننا فنرتفع إلى إسلام المغيرة بن شعبة وإيمان ربعي بن عامر ومن سبقهم ومن لحقهم من سلفنا الصالح أم نريد أن نبقى تحت ظل أكاسرة وقياصـــرة

وشعوب تنظر إلينا وكأننا حثالة الأمم وتزدرينا وكأننا لا نساوي شيئاً في هذا الوجود .. ﴿ ... **وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُـــولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ [المنافقون : ٨] .